

وجد الموضع حافلا بجند الكاثوليك فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبي حفص عمر الهنتاني المعروف بالشهيد إلى أبي زكريا الحفصي يعلمه بالحال ، واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسي فيها في الثاني عشر من محرم ٦٣٦ هـ = ٢٦ من أغسطس ١٢٣٨ م ، وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كانا يحملهما ، وعاد بالمال لأنه لم يجد مستولا يتسلمه .

استمر حصار بلنسية قائماً ، وكل يوم يزداد ضراوة حتى « نفذت الأهوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، وتغشى المسلمين يأس قاتل ، فرأى أبو جميل زيان أمير بلنسية أن يفاوض **خاتمة الأول** على تسليم المدينة ، وكان رسوله و كاتب العقد هو ابن الأبار ، ونص في الاتفاق على أن يتسلم الملك الكاثوليكي - أو الطاغية كما ينعته ابن الأبار - المدينة سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم . « وابتدىء بضعة الناس وسُيروا في البحر إلى نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم برّاً وبحراً ، ودخلها الروم صبيحة الجمعة السابعة والعشرون من صفر ٦٣٦ هـ = سبتمبر ١٢٣٨ م .

وذهبت ، وربما إلى الأبد ، درة مدن الأندلس ، وكبرها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

لكن أمل المسلمين في النصرة لم يذهب بضياح بلنسية ، فبق من الشعراء من يستنهض عزائم المسلمين في الأندلس وفي الشمال الأفريقي لاستردادها ، وحفظ لنا المقرئ واحدة من قصائد هؤلاء الشعراء ، طويلة النفس مجهولة القائل ، توجه بها صاحبها إلى أبي زكريا عبد الواحد بن أبي حفص أمير تونس الذي أنشده ابن الأبار قصيدته السابقة ، وهي في تسعين بيت ، وحين درست النص للمرة الأولى انتهيت إلى أن قائلها واحد ، وأن مناسبتها كانت بلنسية ، فالشاعر لا يشير إلى غيرها من نكبات المسلمين العديدة ، التي صحبت أو سبقت سقوط عاصمة شرقي الأندلس وكبرى مدنه ، ثم رجحت على استحيا أن تكون لابن الأبار نفسه ، لتوافق النغم ، وتقارب الإيقاع . فالمناسبة واحدة ، وتوجهها بالنداء إلى رجل واحد ، ومطلع هذه قريب من مطلع تلك ، ونداءات الاستغاثة ، وصيحات الاستنفار قسمة بين القصيدتين ، غير أني ، في غيبة الشواهد الحاسمة ، لم أقطع بهذه